إن الفنون الحقيقية لا يمكن أن تنبثق من الأوامر والقواعد إطلاقاً. إن قواعد الملحمة والدراما اليونانيتين لم توجدا قبل «الإلياذة» و«الأوذيسة»، وتراجيديات «سوفوكل» و«إسخيل» و«يوريبيد». والمعلوم أن «شكسبير» استطاع أن يكشف عن عبقريته حين هدم تلك القوانين التي كبلت الفن المسرحي مدة طويلة من الزمن، من مثل قانون وحدة الزمان، والمكان، والموضوع، وعدم الخلط بين الأجناس الأدبية وما إلى ذلك.

وإذا سمحنا لأنفسنا بأن نجاري الناقد الاشتراكي «سيمون فريليخ» الذي راح يلح على أن الواقعية الاشتراكية «لم تولد في مقالات المنظرين» وإنما في اللوحات والتماثيل والقصائد والكتابات والأفلام التي أنتجها الفن الثوري الجديد»[١٥] فإننا لا نستطيع أن ننكر بأن المنظرين والنقاد الماركسيين بله السياسيين وقادة الحزب الشيوعي هم الذين حاولوا أن يفرضوا قواعد معينة على الكتاب والفنانين ويلزموهم بمراعاتها في إنتاجهم. وهذا مما أدى إلى جمود الفن إلى حد ما، لأن الفن لا يمكن أن يخطط له كما «يخطط للاقتصاد»[١٦].

والسؤال الذي يمكن أن يطرح هنا هو ما إذا كان هذا الحكم ينطبق على كل الكتاب والفنانين؟ الحقيقة أن هناك بعض الكتاب يجب أن يستثنوا من هذا الحكم، وذلك لأنهم يعدون من واضعي تلك القواعد في الفن الاشتراكي، ولذا فإننا نخطىء لو حسبنا كاتباً مثل «ماكسيم غوركي» خاضعاً لآراء النقاد والقادة الماركسيين ونحن نعرف من خلال سيرته الذاتية أنه لم يكن من مؤسسي الواقعية الاشتراكية فحسب، بل كان أيضاً شديد التعاطف مع العمال والفلاحين والبائسين، كثير التجارب والاحتكاك بالثائرين الاشتراكيين[١٧]. إن «غوركي هو الشعب نفسه»[١٨] على حد تعبير «غروموف»، وهذا ما يبدو بكل وضوح لمن يعود إلى قراءة ما عاناه غوركي من التشرد والفقر والسجن[١٩]. فغوركي لم يكن مجرد مطبق لقواعد تملى عليه من الخارج، وإنما كان مسهماً في وضع أسس وقواعد الفن الواقعي الاشتراكي.